إبراهيم صموئيل
رائحة الخطو الثقيل
قصص
ألف ياء
Alf Yaa

رائحة الخطو الثقيل

منشورات «ألف باء AlfYaa»

المؤلف: إبراهيم صموئيل
الكتاب: رائحة الخطو الثقيل (قصص)

صدرت النسخة الرقمية: آذار/مارس 2026

ـ الإصدار الأول للكتاب 1988 ـ دار الثقافة الجندي ـ دمشق ـ سورية

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePubو Mobiو/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**«ألف ياءAlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

إبراهيم صموئيل

رائحة الخطو الثقيل

قصص

إهداء

إلى الثلاثي رام

المحتويات

القضية.....8
الزيارة.....17
المقبرة.....25
العيون المشرعة.....35
الرجل الذي لم يعد أباً.....41
رائحة الخطو الثقيل.....51
هذه المرة.....61
الصناديق.....65
ليّا.....73
يا فدوى.....83

القضية

ممدوح عدوان

رجل يحمل قضية، أو رجل يدافع عن قضية. يغامر، ويضحي، من أجلها. يعيش حياة الملاحقة والتخفي. ثم يُقبض عليه ويدخل السجن. يواجه ما يواجهه السجناء السياسيون عادة. يقضي مدة ما ثم يخرج فيكتشف أنه كان يحمل قضية، وفي هذه التجربة اكتشف «القضية».

ما يلفت الانتباه في هذه المجموعة من القصص القصيرة التي تنزف، بفعل السياسة، أنها تخلو من كلمة سياسية واحدة. أنها، أيضاً، خالية من مشاهد التحقيق والتعذيب والضعف، أو البطولة، أمامها.

ربما لهذا أثارتني المجموعة ودفعتني للكتابة عنها.

هناك فخ وقع فيه كتاب كثيرون. وهذا الفخ هو مقولة أن الكاتب شاهد عصره. هذه المقولة الصحيحة تحولت إلى فخ من خلال سوء فهمها وسوء التعامل معها. فكلمة «شاهد»

أوحت للكثيرين بجو المحكمة وبضرورة الالتزام بقسم «والله العظيم أقول الحق...» وبالتالي فقد حولوا الأدب إلى شهادة قضائية أدى ادعاء الحيادية والموضوعية والصدق فيها إلى غياب الحياة (كما يحدث في المرافعات السياسية في «العقب الحديدية» لجاك لندن).

بعد أن ترجمت كتاب «التعذيب عبر العصور» قررت كتابة شيء عن هذا الموضوع. ورجعت أقرأ ما كنت قد قرأته وما أرشدني الآخرون إلى قراءته حول التعذيب وآثاره ونتائجه وأسبابه، وقرأت، بشكل خاص، في الأدب وبعض الأبحاث النفسية والاجتماعية.

ولأن العالم حاشد بالقمع والعنف فقد كانت التجارب التي سجلت كثيرة ومربحة. ولكنني بين حين وآخر التقيت بمن خاض تجربة شخصية فأكتشف أن الواقع أكثر شناعة وترويعاً من تلك الكتابات. وإذا كانت الكتابات قد استطاعت حمل شهادة الفضيحة عن الحد الأقصى الذي يمكن أن يصل الإنسان إليه في وحشيته أو في صموده إلا أن معظمها أهمل، من خلال تصوير ضراوة المعركة بين السجين والسجان، أن يحاول تقديم شيء من الحياة التي يدافع عنها السجين أو يخسرها. أي أنه أهمل «القضية».

ذات يوم سمعت عبد الرحمن منيف ينصح كاتباً «متخرجاً» من السجن. وقد قال له: ها أنت قد خضت تجربة وعانيت ودفعت الثمن. اهدأ الآن. وسيطر على توترك وردود أفعالك. واكتب أدباً.

إبراهيم صموئيل لم يسمع نصيحة عبد الرحمن منيف

لكنه استمع إلى نصيحة قلبه. وربما كان قلبه هو الذي اكتشف «القضية».

إن المناضل السياسي يحمل قضيته شعارات وعناوين. ولذا فهي قضية عامة: الوصول إلى الجماهير، تحريك الجماهير، توعية الجماهير، البحث عن حل لمشكلة المجموع، البحث عن أثر الانحراف السياسي على الشعب... الخ.

أما «القضية» - والتي يتعامل معها إبراهيم صموئيل بعد التجربة في قصصه كلها - فتبدو خاصة وشخصية. إنها تفاصيل من الحياة. ولأنها تفاصيل صغيرة وخاصة وشخصية فإنها أكثر إنسانية من الشعار السياسي. فهي، حتى حين تغرق في الخصوصية والشخصية، تصبح أكثر شمولية لأنها تشبهنا. وتصبح أيضاً أكثر تأثيراً لأنها تُدخلنا من باب القلب، سيد الحياة، بينما يُدخلنا الشعار السياسي من باب العقل (قاتل الأدب). والنضال السياسي نفسه يهدف إلى ما هو أبعد من السياسة. لكن فقر حياتنا إنساناً ذلك الهدف البعيد. فظننا أن الهدف هو فقط تحقيق الشبع والكفاية والمساواة والحرية. ونسينا أن هذه الأمور ليست سوى الخطوة الأولى نحو تحقيق إنسانيتنا: أي أن نصبح بشراً حقيقيين قادرين على تلمس جمال الحياة والتعامل معه ومجاراة الحياة في إبداعها؛ فنصبح آباء أفضل وأبناء أفضل وعشاقاً أفضل ومبدعين أفضل.

سئل طفل فلسطيني في الأرض المحتلة: لماذا تكره الإسرائيليين؟

فقال: لا، هم لا يسمحون لي أن ألعب بالكرة هنا. وأشار إلى ملعب قريب في مدرسة. وهناك كان الأطفال اليهود يلعبون ولا يسمحون للأطفال العرب باللعب.

أعتقد أن من الممكن الدخول إلى إشكالية القضية الفلسطينية من إجابة هذا الطفل.

إن حياتنا جحيم.

يكفي أنها تجبر شابة، تعلم الصغار، على التفكير في سرقتهم أمام عدم قدرة الدخل على سد الحاجات الضرورية (كما في قصة «ليّا»).

وفي حياة التخفي التي يعيشها البطل (والذي لم نعرف ما هي قضيته السياسية لحسن الحظ) يظل الكاتب متشبثاً بهذه التفاصيل لأنها هي الحياة. كان يمكن لشخص آخر أن يحكي عن المهارة في الهرب وعن البيوت السرية والمداهمات. ولكن إبراهيم صموئيل يحكي عن محاولة الهارب اللقاء بالفتاة التي يحبها. وبعد ترتيبات مرهقة للأعصاب وارتقاء ظلال الخوف تفشل المحاولة (رائحة الخطو الثقيل). وفي قصة «المقبرة» تنجح المحاولة فيتم لقاء جميل صغير في مقبرة.

ليست المسألة، إذاً، توزيع منشور أو إلقاء قنبلة أو اقتحام مكان. ليست بطولة أو انجازاً. إنها محاولة اللقاء بحبيب. فهل يستحق الأمر هذا كله؟ هل تستحق «إيثاكا» رحلة «أوليس» كلها؟ نعم، يقول كافافي، «إيثاكا أعطتك الرحلة الرائعة... ولولاها لما انطلقت مرتحلاً».

بعد حياة المطاردة هناك حياة السجن التي نراها، هي الأخرى، من خلال قصتين. والقصتان تتحدثان عن زيارتين تقوم بهما زوجة السجين لزوجها.

الزيارة الأولى تحكي عن اللقاء الأول الذي يعوّل البطل عليه، إضافة إلى كل شيء، بأن يساعده على رد جميل زملائه الذين تكاتفوا معه في السجن مادياً ومعنوياً. ها هي زيارته الأولى. وبالتالي ها هو شيء ما سيأتيه من الخارج لكي يتقاسمه مع زملائه الذين تقاسموا معه كل شيء. وتعطيه قطعة نقدية من فئة الخمسين ليرة. وفيما هو يتمعن في القطعة الورقية ويبحث عن رائحة حبيبته وآثار أصابعها فيها يكتشف أنها قد كتبته له بخط دقيق لا يكاد يرى كلمة حب!

وتتحول القطعة النقدية إلى شحنة عاطفية: رسالة شخصية لاحق أحد فيها. في أحرف الكلمة صورة حبيبته وأشواقها وأسرارها. ولكن الحياة، والحياة في السجن خاصة، أقسى من أن تسمح بالتعامل بهذا الحنان. (العيون المشرعة) في وجوه زملائه لا تترك خياراً: يجب غسل القطعة النقدية من عاطفيتها، وتجاهل الكتابة عليها، والتعامل مع قيمتها الشرائية فقط.

وفي الزيارة الثانية، القصة الثانية، يكون مع الزوجة ابنها. يأتي الأب معبأ بالشوق والحب للصغير إلى درجة أنه يكاد أن ينسى زوجته. شحنة اللقاء مكرسة لمحاولة التماس مع الصغير الذي بدأ يتعرف على العالم الخارجي في غياب أبيه. يمد الأب عينيه وأشواقه ورغبته في الضم والشم والعناق ليقيم جسراً يوصله إلى الطفل ولكن الطفل لا يعرف

أباه ولا يهتم به ولا يستجيب لعواطفه. وقصر وقت الزيارة، مع وجود الحاجز الشبكي، لا ينجح المجال لتعميق المحاولة أكثر. ويكتشف أن الجدار الذي يفصلهما الآن صار أكبر من ذلك الحاجز الشبكي الموجود في السجن. لقد حدث فصل قسري بين كائنين جميلين رائعين كان يجب أن يظلا معاً لكي تكون الحياة طبيعية. ومع ذلك يعود الأب مترعاً بسعادة فاجعة. يكفي أنه رأى الصغير وتحدث إليه ولو من جانب واحد.

وهذا ينقلنا فوراً إلى القصة الأخرى (الرجل الذي لم يعد أباً لابنه) حيث يكون الطفل قد كبر قليلاً واكتشف كلمة الأب. فدلته الأم على صورة لأبيه. وصار الصغير يتعامل مع الصورة على أنها أبوه. يحادثها ويأخذ منها النقود ويشكو لها ويلاعبها. وحين يخرج الأب الواقعي من السجن يكون شيئاً آخر مختلفاً عن الصورة. يكون رجلاً قد انكسر وتغضن وصلع. لم يعد ذلك الشاب الجميل المشرق الذي كان الصغير يتعامل معه، فيرفضه الصغير مرة أخرى.

ربما كانت قوة هذه اللقطة في تكثيفها الحارق. وربما كان ما ساعدها للتحدث بهذا الشكل المؤثر عن التغيرات التي طرأت على الأب في السجن هو عبورها من خلال الطفل: الحياة بدّلت أباه صورة. والصورة هي ما كان عليه.

لعل الأم نفسها قد أحست بهذا الفارق بين الحبيب السابق وبين الزوج الخارج من السجن. لكن طرح الموضوع من خلالها سيعرضنا إلى فتوى أخلاقية، وسيجعلنا نطالبها بالتفهم. وستقف على أبواب مأساة يتصارع فيها حقان

مشروعان: (عاد أوليس إلى إيثاكا فوجد بنلوبي عجوزاً. وبالمقابل عاد أوليس الذي انتظرته بنلوبي وإذا به يعود عجوزاً)... ولكن كيف تناقش هذا الطفل؟!

نحن في حاجة إلى هذا الطفل في كل بيت لكي يدلنا، دون أن يقصد، إلى ما فقدناه في تجاربنا المريرة.

نحن في حاجة إليه لكي نعرف قسوة الحياة حين يضعف بين أيدينا ونحن لا نستطيع له شيئاً ولكي نعرف كيف يتحول الشيء الصغير الوديع إلى عبء أثقل من الجبال.

ونحن في حاجة إليه لكي نكتشف جمال التفاصيل الصغيرة في حياته وحياتنا... ولكن بعد أن يموت.

هذا الطفل الجميل... هذا الطفل الضرورة... هذا الطفل العبء. هذا الطفل المرآة.

هذا الطفل الذي لم يتعلم المجاملة و«تقدير الظروف» بعد والذي يمكن أن يجرحنا حين ينكرنا أو حين يطالب بأبسط الحاجات الضرورية للبشر والتي تعودنا تجاوزها... هذا الطفل هو الذي يعرينا حين يصرخ: ولكن الملك عارٍ. فيعري الحياة من مكياجها الرديء ويدلنا على القسوة الحقيقية التي فيها وعلى أننا لم نكن نحيا حياة البشر.

ما الذي يفعله بنا أدب كهذا؟

باختصار: يذكرنا بإنسانيتنا. وهذا إنجاز عظيم. كأنه كنا مشدودين إلى مباراة حامية في كرة القدم. عقولنا وعيوننا، كلها، مركزة على أرجل اللاعبين والكرة والمرمى والأهداف، وبعد أن تنتهي المباراة نحس أنه لم تعد لنا

علاقة بالملعب. ثم يأتي إبراهيم صموئيل ليتفقد أرض الملعب ويدلنا على الزهور التي انسحقت، والزرع الذي اختنق في الأرض التي صارت ملعباً... وليذكرنا بأن الساعة قد صارت كذا وأننا قد تأخرنا كثيراً على حياتنا... وبأننا، ونحن جالسون، قد سُرقنا: سنعود إلى بيوتنا دون أحلام ودون آمال ودون أوهام.

ما يتفقده الأدب هنا ويدلنا عليه وعلى ما خسرناه هو إنسانيتنا الضائعة. إنسانيتنا المتمثلة في علاقاتنا الصغيرة وأوجاعنا الصغيرة وهمومنا الصغيرة وأحلامنا الصغيرة: البسمة التي أشرقت على وجوهنا ذات مرة. والدمعة التي أفلتت من عيوننا ذات مرة... وقطرة الدم التي قذفها سعالنا ذات مرة.

ما الذي تريد تحقيقه في الحياة؟

هناك جوابان.

الأول: تحقيق الثورة الاشتراكية والعدالة في العالم والتخلص من كافة أنواع الاستبداد والاستغلال.

والثاني: أن أكون إنساناً.

هناك من يطاردون (موبي ديك). هناك جلجامش الذي يبحث عن الخلود... ولكن هناك أوليس الذي رفض الخلود ببساطة لأنه يفقد الحياة معناها ومتعتها إذ يجردها من الخوف ومن الإحساس بالخطر.

بعد أن قرأت هذه المجموعة ازداد إحساسي بالخطر والخوف على أشياء كثيرة.

وتلك هي القضية!

الزيارة

صاح السجّان خارج المهجع:

- سعد عبد الكريم... زيارة.

فقفز قلبي من النافذة، وتبعته من باب المهجع، الذي فتحت قفله القديم يدُ السجّان الكسولة المعتادة، ولحقتني توصيات السجناء الأربعين متداخلة، فرحة:

- سلّم أبو خلدون... سلّم.

- لا تنس طشت الغسيل، هذه المرة!

- بوّس الصغير يا أبو خلدون...

خرجت نحو الممر الضيق، الذي يفصل المهاجع عن باحة التنفس، فأوقفني السجّان آمراً: انتظر. ومضى يتأكد خلو الباحة من السجناء.

ليست الزيارة الأولى لي. فقد مضى على مغادرتي المعتقل أكثر من عامين، تخللتهما بعد تسعة أشهر من إيداعي السجن زيارات عدة. غير أن هذه الزيارة، المنتظرة، كانت تحمل نكهة خاصة، ومفاجأة جديدة، اتفقتُ عليها مع زوجتي في آخر زيارة لها.

عاد السجّان يحمل لهجته الآمرة:

- تحرك بسرعة.

تحركت، دون إسراع، نحو باحة التنفس. قلبي يوغل في الاضطراب. لأول مرة سأرى «خلدون». يوم اعتقلت، كان بطنها متكوراً بوضوح وهابطاً قليلاً. ولدت، وكبر خلدون... ولم أره. حاولتُ مرارا - في زياراتها - إقناعي بإحضاره معها، لكني امتنعتُ بإصرار. في الزيارة الأخيرة، خرّ امتناعي فقبلت.

قطعت، خلف السجان، باحة التنفس، وهبطت العتبة الأولى في الدرج النازل من الطابق العلوي للسجن. تدحرج قلبي، وأربكني اختلال تنفسي. كأنها الزيارة الأولى! ما شكله يا ترى؟ هل يشبهني أم يشبه أمه؟ أيناديني: بابا لحظة يراني؟ المشكلة، أن لا وقت للتعارف هنا «فالأكل بالميزان والزيارة بالثوان». ليتني ما قبلت زيارته!

انسحب الدرج خلفي، وتركني السجان منعطفاً نحو غرفة مجاورة، فواجهتني شباك الحديد المعدة للزائرين.

لم أستطع مرة الفوز بلقاء في غرفة الزيارات الخاصة. لقاء الغرفة للقلة المدعومين، وأنا واحد من الأكثرية التي تنحصر زياراتها خلف بابين من القضبان، يقف بينهما شرطيان يجمركان الحديث الداخل والخارج!

خطوتُ نحو قضبان الباب الأول فخرجتُ، من الغرفة خلف قضبان الباب الثاني، زوجتي، تمسك يد طفل صغير، ساحر، يغرق رأسه بقبعة حمراء تطاولت مقدمتها، ويخرج ساقيه البضتين من بنطال قصير أبيض، مزنر بحزام تهدل من جنبه مسدس صغير، يخطو مقصراً عن أمه قليلاً، مندهشاً من جعجعة الأصوات المتزاحمة، المتبادلة بين

السجناء وأهاليهم، يوزع، دون تركيز، نظرات حائرة وجلة.

قرفصتُ، حين دنا، وناديت:

- بابا... خلدون بابا.

فاجـأه النـداء، فـالتفت مسـتغرباً، إليّ! دائـراً عينيـه، الصغيرتين، السوداوين تنغلقان على تساؤلات لا أملك أجوبتها.

مددت يدي، من خلل القضبان بقطعة بسكوت أحضرتها معي:

- خلدون، خذ... أنا بابا!

لبرهة ظل واجماً. ثم ارتد، حزناً، خلف أمه. شدّ ثوبها، واطّل بوجهه. حدقتُ فيه، وابتسمت... فغطى وجهه محتجاً. انحنت أمه، تحاول معه، فالتصق بها أكثر مراوحاً في مكانه.

قالت أمه:

- دعه يا سعد الآن... واسمعني تجاهلت طلبها، وتابعت المحاولة، صاحت، برفق، مؤنبة:

- خلدون!... سلّم على البابا الحباب!

صاح صوته المطمور في ثوبها:

- ما بدي...

- خلدون حبيبي هادا بابا!

- ما بدي... ما بدي... بدي غيرو!

ضحكت أمه، وضحكتُ معها. من أين لنا بـ«غيري»؟

كنت ما أزال مقرفصاً أتأمل حائراً خلدون المختبئ وراء نصف أمه، الذي بدا مقطّعاً بقضبان الحديد، حين فكرتُ باستخدام سهمي الأخير لاصطياد ودّ هذا «الأزعر». ندهشُ وأنا أهمّ بالوقوف: خلدون... فلما لم يجب، تابعتُ لعبتي:

- طيب أنا زعلان منك يا خلدون... أنا رايح.

واستدرتُ، أمثّل المغادرة. خطوت خطوتين، ثلاث... والتفت، لم أره! كان ما يزال يتبرم خلف أمه. صاحت، لحظتها، زوجتي مستاءة من اللعبة:

- سعد! دع خلدون! انتهى الوقت. عندي كلام هام أقوله لك!

فطنتُ، فاقتربتُ متلهفاً:

- هيا قولي... ما هو؟

صاح السجّان الواقف قرب الشبك:

- عبد الكريم... انتهت الزيارة.

بوغتُ بفرار الوقت، فرجوته قائلاً:

- لحظة... لحظة.

علا صوته رمادياً، ثقيلاً، ناهياً:

- عبد الكريم، أقول لك انتهت الزيارة... فهمت؟!

فهمت. أدركت تهديده بقطع زياراتي القادمة، ففهمت.

انسحبتُ للخلف، فاستلقى الدرج الحجري تحت قدميّ. صعدت، والسجان خلفي. قطعت باحة التنفس، مصغياً إلى نشيد الأقدام الأربعة في الباحة الخالية. وكدت أدلف إلى

المهجع، لحظة لمع في ذهني السؤال:

- ما الذي كانت تريد أن تقوله لي؟!

أيار 1986

المقبرة

يزعق منادي الموت «ترحموا عليه يرحمنا ويرحمكم الله... سامحوه يسمح عنا وعنكم الله» فيكسر زعيقه، الخارج من مكبر الصوت، هدأة زنزانتي وتتلقفه أذناي اللتان كبرتا، في ضيق الزنزانة وفراغها، وباتتا مستقراً لأية نأمة تند عن قبو المعتقل، أو تأتي من خارجه!

ولضيق الزنزانة وفراغها، رحت أقطع الوقت: مرة، بانتظار تكبير المؤذن، في الجامع قرب المعتقل، مرات خمسا. ومرة بترقب نداءات بائع البوظة، الذي يصادف مجيئه بعد وجبة الغداء تماماً. ومرة، بالتنصت على مشاجرات النسوة من السكان المجاورين، التي كانت تصلني، غامضة، كل مساء.

وبلعبتي هذه، التي ابتكرتها حاجتي المفتقدة للآخرين، صرت أهو، مبعداً عني وحدتي التي أضرّتني بخفافيش الوساوس والأوهام.

غير أن زعيق المنادي، هذه المرة - والذي أتخيله يركن جوار الجثة في سيارة دفن الموتى - قد طير الخفاش من المقبرة ليحط فوق رأسي! ومع الخفاش، جاءت «عناد» إليّ، فضحكت. دخلتُ، هي الأخرى، زنزانتي وحطت فوق رأسي! تذكرت خوفها، ودهشة عينيها، وحبرتها... فضحكت.

لا، لم تمت عناد، ولا مت أنا. مازلنا أحياء، نعم، مبعدين. ولكننا أحياء. لم يتغير شيء، قبل أن اعتقل، كنا مبعدين أيضاً، أحياء مبعدين! هي في منزلها بانتظاري، وأنا

متخفٍ في حارات المدينة، في شوق إليها، مطارد من أشباح ملأت المدينة، تجوب الشوارع وتداهم البيوت... بحثاً عمن أنا منهم!

تخفيت، والتخفي يخلق الشوق، فاشتقت، أشعل أشجار قلبي، فاحترقت في غابته. فكرت: أراها! لمرة واحدة فقط، أراها. أضمها، أبوح لها بكل شيء، وأتوارى. لا بد أن أراها. لست حجراً. يوم أبلغوني ضرورة التخفي، لم أتمكن من رؤيتها. أمر التخفي كان فورياً، فطرت من غرفتي، وظلت في جمراً يحرقني. نعم، نبهني الرفاق أن أحاذر في تحركاتي ولقاءاتي... وأكدوا علي - حين اشتدت حملة الاعتقالات - أن أمتنع عن التنقل، دون ترتيبات تصلني، مسبقاً، بالبريد السري... لكني لست حجراً. تعميمات الرفاق لا تأخذ الأشواق في حساباتها، وأنا فاض بي الشوق، طفح عن قلبي وملأني. لا يعرف الشوق إلا من يكابده، هم لا يعرفونه، وأنا أكابده!

رسوت، بعد طول تردد، على برّ القرار. وضعت ترتيباتي الخاصة وأقنعت نصفي المتردد: أنت إن رأيتها، متّ، وإن لم ترها مت، فرها، ومت. فاقتنع، ورسوت على برّ القرار.

رأيتها ولم أمت!

كان القمر، في تلك الليلة، مبعداً من السماء، والبيوت دفنت أنوارها، وخلت الحارة الضيقة، خلف منزل عناد، سوى من العتمة والصمت وبعض القطط.

حين التقيتها، سارعتُ بالقول:

- كيف تخاطر بالمجيء يا سعد، وأنت الحذر دوماً؟!

- لا أدري! قلت أراك مرة، فقد اعتقل... وإذا حدث، فلسنوات طويلة، كما تعلمين.

التصقت بي، وتلفتت يمنة ويسرة، بادرها:

- عناد... وقوفنا هنا خطر. أتذهبين معي؟

أجابت بلهفة:

- نعم. ثم استدركت: إلى أين؟

- أسألك، أتذهبين معي؟

- نعم، لكن إلى أين؟

همست، مشيراً بيدي:

- هناك، إلى المقبرة.

قرصتها فكرتي:

- المقبرة يا سعد!!

ماءت قطة قربنا، فخدشت أمان السكون.

- عناد! لا وقت لدينا نضيعه...

- أعرف يا سعد... ولكن غير المقبرة! غرفتك مثلاً.

- تقولين غرفتك؟ عجيب! ملاحق، وأذهب إلى غرفتي!

- أقصد... منزل أحد أصدقائك، معارفك، ليس من المعقول أن نذهب إلى المقبرة!

علت أصوات قطتين تتشاجران، فضقت بالوقوف.

- عناد، أفهميني. ليس من أمان مثل المقبرة، لدي الكثير لأقوله لك. الوقت يمر. كل البيوت والطرقات «مشموسة».

صمتت قليلاً، ثم قالت:

- مستحيل، يا سعد، مستحيل.

صرخت مرغماً:

- ما المستحيل؟! أقول لك لا أستطيع الحديث معك هنا!

أتفهمين؟

لا أدري إن فهمت، غير أني قسوت. أحسست أني قسوت، أو ربما شعرت بالحصار، فصرخت في وجهها: «أنا نفسي غير مقتنع، تماماً، بالذهاب إلى المقبرة... لكن ماذا أفعل؟ كل الأماكن الآن، تخفي خطراً.»

ليثنا، لحظات، صامتين. أثقل الصمت صدري. نظرت إلى وجهها، كان حزيناً، دهشاً، خائفاً، ومتردداً. حاولتُ أن أعتذر:

- عناد...

- لا تقل شيئاً. قاطعتي وابتسمت، ثم أضافت: لنذهب الآن... ولكن أقسم إنك مجنون.

قفزت قطة تعدو، وعدا خلفها آخر، فعمّ السكون الأمين.

- وأنا أقسم، أيضاً.

كانت المقبرة تبعد عن الحارة الضيقة، خلف منزل عناد،

مسافة حارتين وشارع قصير. نبّهتها، قبل أن تنطلق: «كوني حذرة. لو حدث وداهموني في الطريق، تابعي سيرك دون توقف. لا تضطربي، ولا تعيريني انتباهاً. لن يوفروك أبداً لو اكتشفوا علاقة بيننا» ثم انطلقت. باعدتُ بيني وبينها، سرت أمامها خطوات ومشت أثري. مضيت دون أن التفت إليها. وقع أقدامها، ونهاتها أحياناً، كانت تنبئني أنها تتبعني.

وصلنا المقبرة بسلام. كان بابها مغلقاً. انعطفتُ يميناً، أدور حول المقبرة. في جدارها الخلفي ثغرة تسمح بتسللنا. رحت أتذكر: «كم عَفْرَتْنا، أنا وحسن ومحمود وعبد اللطيف، حين كنا صغاراً، في هذه المقبرة. لم نخش الدخول إليها، واللعب فيها... كانت مأوى لشقاوتنا، وأحلامنا، وأسرارنا. أذكر، حين كنت الطأ خلف قبر ناء، في لعبة الأبطال والحرامية، تداهمني رغبة أن أخفي فتاة، أيّة فتاة، خلف القبر بعيداً عن أعين الناس، وأشبعها قبلاً. وعناقاً حتى مطلع الفجر... فأظل في عناق، أسرح مع اللذة، ناسياً اللعبة وأبطالها وحراميها، وأنا لاطئ مع فتاة أحلامي، خلف القبر النائي... ثم بعد برهة، انتبهت إلى أن أصدقائي غادروا المقبرة، بعد أن جهدوا - كما أعلم في اليوم التالي - في البحث عني، وتركوني وحيداً مع أشباح القبور، البيضاء المنتشرة فأقفز راكضاً، والخوف يلاحقني.

وصلت الثغرة. تلفت، رأيتها تقترب، بتردد، مني... انحنيت، وخطوت داخل الثغرة. استدرت، فلاحت ساقاها متلفعتين بالثوب الوردي، بينما اختفى نصفها الأعلى، خلف

جدار الثغرة العلوي.

مددت يدي:

- ادخلي... هيا، ادخلي.

أمسكت يدي، انحنت، ودخلت.

وقفنا متجاورين. كفها - الصغيرة المرتعشة - تذوي داخل كفي.

للحظات، بقينا صامتين. عيناي، الوجلتان، تنتقلان من قبر إلى قبر. كفها المرتعشة، داخل كفي، تزيد من اضطرابي.

كانت المقبرة كئيبة إلى حد رهيب. سكونها، موحش ومفزع. مجللة بالظلام الأبكم، وموشاة بالقبور الكلسية، البيضاء، المتنافرة، الممددة، بفوضى، بعضها قرب بعض، تفصل بينها ممرات، سوداء، ضيقة، تتسع لأقدام أشباح الموت التي تظهر وتختفي، بين لحظة وأخرى.

كان العرق المتصبب على وجهي قد ابترد، حين استدرت - دون أن أنظر إلى عناد - وقد فرغت، سوى من سكون المقبرة. اتكأت بيدي على الجدار، أخرجت رأسي من الثغرة وخطوت، بساق واحدة، خارج المقبرة في حين ظلت الأخرى داخلها.

بغتة، قفزت من عناد صيحة رعب رفيعة، مكتومة، نخرت عظامي: «سععد».

تجمدت مكاني!

كانت المدينة خارج المقبرة، في تلك اللحظة، كئيبة إلى

حد رهيب. سكونها موحش ومفزع. مجللة بالظلام الأبكم، وموشاة بالبيوت الأسمنتية، الكالحة، المتنافرة الشاخصة، بفوضى، بعضها قرب بعض، تفصل بينها ممرات، سوداء، ضيقة، تتسع لأقدام الأشباح التي تجوب المدينة، بحثاً عن المطاردين المتخفين، فتظهر تارة وتغيب أخرى.

تموز 1986

العيون المشرعة

كنا نهمّ بالعودة إلى القبو - بعد أن انتهى دورنا في المرحاض - حين ناداني السجّان، ومد إليّ ورقة نقدية قائلاً:

- خذ. خمسون ليرة، حضرت زوجتك اليوم وأرسلتها لك.

نترنها، وطرت باتجاه القبو.

- يا شباب... جاء الفرج!

صاح مجد باشاً:

- كم المبلغ؟

رفعتها كصيد ثمين:

- خمسون... خمسون ليرة.

لم أتساءل كيف عرف مجد أن ما أحمله هو مبلغ من المال. فالفرج، في حصار القبو وتراكم العرق والدهون على أجسادنا، كان يعني لنا - نحن نزلاء القبو العشرة - وصول أي مبلغ يتيح لنا شراء الصابون أو سراويل جديدة عوضاً عن تلك التي انتنت تحت إبطنا. ولطول الأيام التي قضيناها دون حمام أو تغيير ملابس، مذ أخرجنا من الزنزانات وحشرنا في هذا المتكور تحت الدرج: القبو، شاعت تسميتنا بجماعة الريحة، بحيث صار السجانون ينادوننا بها:

- «تحركوا يا جماعة الريحة إلى المرحاض...»

- «هل ارتجت باب القبو على جماعة الريحة؟»

- «هات لي واحداً من جماعة الريحة!»

ولسبب لا ندركه، لم نكن نستاء من تسميتنا المبتكرة هذه، بل كثيراً ما كانت تثير ضحكنا ونحن نعبر الرواق بين صفين من السجانين يكتمون أنفاسهم في ذهابنا وإيابنا، صارخين بطابورنا كي نسرع الخطو.

تركت نزلاء القبو، الذين عمّ الهرج بينهم وبشّت وجوههم، وانزويتُ في ركن، أفتش عن أنامل زوجتي - التي لا بد التصقت على الخمسين ليرة - ... رائحة حقيبتها، أو ربما وجهها الذي اختفى خلف الدائرة أو قرب الصفر.

قلبت الورقة، فذهلت!!

على المساحة الدائرية البيضاء، قرب صورة القلعة تماماً، قرأت جملة، كُتبت بخط أعرفه يقيناً: «من أم خلدون إلى أبو خلدون الحبيب»! هذا خطها! خطها لا محالة. ليس حلياً أبداً. من انحناءات الأحرف، وانكسار الألف، وتعرج النون... عرفته! من رفع «الأب» الذي طالما شاكستها - في رسائلها القديمة إليّ - على ضرورة جره... عرفت خطها! كانت هي، وقد توزعت على أحرف، ودخلت قبوي!

بغتة اكفهر وجهي بعد قراءة جملتها. طفا الغم وأغرق الفرج: كيف أنفقها؟! تبخرت رائحة العرق، فجأة، فلم أعد أشمها. وانجلى النتن، فلا أحس به. تلوّن القبو بالفرح: ليست خمسين ليرة لبضعة سراويل، هي خمسون جدولاً لقلبي... فكيف أهدرها؟!

للحال، واريتها جيبي، فأحسست بالخديعة! سامر لم يتردد، يوم اعتقلنا، عن إنفاق المائة ليرة التي كانت معه!

أخرجتها، مذعوراً، من جيبي، وعدت فقرأت «من أم خلدون إلى...»

أنا أيضاً لا أتردد. لكنها رسالتها إليّ! لأول مرة بعد زمن طويل من التشتت، تجتمع العائلة الصغيرة معاً: خلدون وأمه وأنا، فكيف أبعثرها؟!

«لا وقت للعواطف يا أبا خلدون» هكذا سيقول عبد الحميد لو علم. حقه. فعلا لا وقت للعواطف! هو لم يقصّر أبداً، فهل أتلكأ أنا؟! قبل ساعة كنت أكثرهم تذمراً من رائحتنا العفنة واتساخ ثيابنا! ولكن... هل ضاقت الدنيا إلى هذا الحد؟ يعني، خمسون ليرة لن تفك أسرنا، وحتى لو... فهم لن يقبلوا. نعم. أعرفهم. لن يقبلوا، لو علموا، التفريط بها!

لذا، سأخبرهم. نعم، سأخبرهم، وينتهي الأمر. ثم... ثم ما يدريني أن تصل يد سكير أبله، يولجها بين ثديي غانية رخيصة، مقابل دقائق على طرف سرير عفن؟! يعني لولا كتبت أم خلدون لما فكرت في الاحتفاظ بها. غير أنها كتبت. كتبت ووصلتني. نعم سأخبرهم... سأخبرهم.

نهضت من زاويتي، فداهمني لغطهم. كانوا يتشاورون فيمن سيقرع باب القبو ويطلب من السجانين السراويل.

ناديتهم، مختنقاً بصوتي:

- يا شباب...

التفتت العيون نحوي، فأفزعتني!

لا أدري لم فزعت. ولا فهمت ما باحت به... غير أني -

في لحظة - لمحتها كلها: بعضـها كـان مشـرعاً، وبعضـها مواربـاً، وبعضها غائباً. ثم وجدتني - دونما وعي - انخرط معهم بحثاً عمن يقرع الباب.

أيلول 1986

الرجل الذي لم يعد أباً

هل حدث معك أن اكتشفت، فجأة، أنك لست أباً لابنك؟ وقبل أن تتسرع في الجواب، أود الإيضاح بأني لا أقصد بـ«الاكتشاف» ما يحدث في الأفلام المصرية، حين ينادي البطل ابنه الشاب، وهو على فراش الموت، فيبكي وينوح ويندب أمامه، ثم يخبره بتراجيدية شكسبيرية بأنه «ليس أباه.. بل أمه»! لا أقصد هذا بالطبع.. بل أعني هل حدث معك ما حدث مع «نذير رحيم العمر» الذي اكتشف، فجأة، أنه لم يعد - بعد أن كان - أبا لابنه؟

أقول: «بعد أن كان».. لأنه فعلا كان أبا لابنه خالد، وخالد هو ابن نذير واسمه - حتى كتابة هذه القصة - ما زال مسجّلا في دفتر العائلة هكذا: «خالد بن نذير رحيم العمر». نعم.. ومريم رحيم العمر - ابنة عم نذير قبل الزواج - هي زوجة نذير، لم تتزوج أحداً قبله، ولا تزوج هو غيرها.. يشهد بذلك دفتر عائلته الذي خلت صفحاته المخصصة للزوجات من اسم أي امرأة أخرى غير مريم.

الحاصل.. أظن أن الموضوع واضح لا لبس فيه. أعني تناسب وتسلسل القرابات في عائلة المواطن نذير رحيم العمر، اللهم.. إلا في هذه المشكلة الطارئة التي اعترضت حياة العائلة، أو حياة نذير، أو لنقل بتحديد أكثر علاقة خالد بأبيه نذير، حيث اكتشف هذا الأخير أنه لم يعد أباً لابنه بعد أن كان.. كما أخبرتكم ذلك!

ولا أخفيكم، بأن هذا الاكتشاف ما كان ليثير مشكلة في

حياة نذير لو بقي ضمن حدوده المعقولة.. غير أنه تجاوزها كثيراً! بل هو وصل في الأونة الأخيرة إلى درجة الفشل المروع والمحزن حقاً! هذا الفشل الذي خلق مشكلة ما كانت لتخطر على بال نذير أو أي من أصحابه أو أقربائه. وكيف يمكن أن يخطر على بال أحد أن رجلاً مثل نذير يمكن أن يفشل في إقناع ابنه أنه أبوه وأن خالداً.. هه، فطنت! ما زاد في تأزيم المشكلة اكتشاف خالد، المفاجئ أيضاً، أن أباه ليس أباه.. أعني أن هذا «الرجل» الأصلع الذي لا قبعة على رأسه ولا لحية لذقنه ولا نظارات سوداء على عينيه، ليس أباه!!

قد تقولون الآن: «بسيطة إذن.. فاختلاف الشكلين هو علة المشكلة». أنا مثلكم أيضاً، ظننت كذلك في بادئ الأمر. لكني عرفت فيما بعد أن نذيراً حاول كثيراً واستخدم ألف أسلوب وأسلوب، صبر وتحايل وناور.. حتى أنه - بعد أن عجز وكاد ييأس - التحى وتقبّع وتنظر.. ولكن دون جدوى! ظل خالد ينظر إلى نذير مثلما يناديه: «عمو» وفي أحسن الأحوال، لفرحه بالهدايا، كان يضيف كلمة: «الحباب» فيصير نذير: «عمو الحباب»، أما أن يصبح: «بابا» كما تاق نذير وتحرّق لسماعها.. فعبثاً! بل تصوروا أن خالداً لم «يخطئ» يوماً - ولو لمرة واحدة - في مناداته: «بابا» كما كان ينادي أباه الذي في الصورة المعلقة على...

هه، صحيح! نسيت مرة أخرى!! كيف لم أخبركم قصة الصورة وهي لب المشكلة؟! أعني دورها في المشكلة أو بالأحرى، دور مريم التي علقت الصورة على الجدار في

غياب زوجها. فمريم هي أساس المشكلة إن جاز لي التحديد. على كلٍ.. كائنا من كان لب المشكلة أو أساسها أو سببها فلن أحشر نفسي في تعيينه أو تحديده. أترك ذلك لكم، لأخبركم بأن الصورة هي صورة عادية جداً. صورة مثل كل الصور أخذها نذير ذات يوم حين كان مطلوباً ومتخفياً، يظهر فيها متنكراً بقبعة ولحية ونظارات سوداء. ثم بعد زواجه من مريم كبّرها وركنها على ظهر الخزانة في جملة رسائل وأوراق وأشياء كثيرة خاصة به. نعم.. وظلت الصورة - كما تفيد مريم - مركونة هناك حتى جاء ليل ٢٥ آذار عام ١٩٧٩ وقاربت ساعته الواحدة. في تلك الليلة، تقول مريم، قُرع باب غرفتهم بعنف وتتابع ملح - وهو نفس القرع الذي بات شائعاً في البلاد - فتح نذير الباب ليباغت بحوالي ستة أو سبعة عناصر مسلحين، داهموا الغرفة، قلبوها فوقاني تحتاني - كما يقول نذير - ثم أخذوه مع بضع أوراق وصحف سرية وكتب ذات أغلفة حمراء، تاركين مريم وبطنها المنتفخ (تقول مريم إنها كانت في الشهر التاسع من الحمل والحادي عشر من الزواج) الذي راح يعلو ويهبط مع شهيق قلبها وزفيره. المهم، مالنا بالطويل.. مضى نذير معهم تاركاً زوجته وأشيائه الخاصة وفي جملتها صورته تلك التي ساهمت، فيما بعد، في خلق مشكلته التي نتحدث عنها.

ولا شك أن ما حدث مع نذير في تلك الليلة ليس جديداً عليكم - فأنتم تعرفونه لا بد من جيرانكم أو أقاربكم أو أحد أفراد أسرتكم - غير أني أود أن أضيف معلومة صغيرة - ربما كنتم تجهلونها عنه - وهي أن غياب نذير عن البيت لم

يكن خمس دقائق، كما أقسم رئيس العناصر بشرفه، بل غاب أكثر من ذلك.. تحديداً، ثلاث سنوات.

بُعيد غرق نذير في الظلمة مُحاطاً بالعناصر المسلحة، ركضت مريم ودخلت البيت، بعد أن شيعته حتى الباب الخارجي، وكأنها صحت مما يشبه الكابوس، طلعت على كرسي خشبي، سحبت من بين كدسات الأوراق والكتب والمجلات صورة نذير التي كانت مغبرة، مسحتها بصدرها الضامر، ثم تأملتها فرأت بما يشبه أحلام اليقظة أنها تنتزعه منهم ويعود إليها. قبلت لحيته وقبعته ونظارته، وانسلت إلى الفراش الذي كانا فيه قبل قليل، ثم ضمته إلى جسدها، فلم يعد يفصل بينهما سوى كتلة لحمية منتفخة كالبالون، ذابت بعد حوالى عشرة أيام، وتحولت إلى من صار اسمه فيها بعد: «خالد».

ودون الذهاب مع مبالغات نذير بأن المشكلة بدأت ساعة ألصقت مريم صورته إلى بطنها ليلة اعتقاله، وأن ابنه قد تعرف على الصورة حتى قبل ولادته بحيث نُقشت في عظامه ودمه وعقله.. فإن المشكلة، في الواقع، ولدت بعد ولادة خالد، ومن ثم راحت تنمو معه في البيت.

ما يؤكد هذا الاعتقاد أن مريم كانت، طوال سنوات اعتقال زوجها، تشارك صورة نذير في الكبيرة والصغيرة: وقت إرضاع خالد كانت تمدده على السرير وتعطيه الرضّاعة بعد أن تقرّب قليلاً صورة أبيه فيلهو بالتحديق بها وهو يمص حليبه. وإن بكى تلاعبه بالصورة فيلهو بها وينسى بكاءه. في الشهر العاشر من عمره علمته: «با.. با»

قبل أن تحفظه: «ماما» ويوم احتفلت مريم بعيد ميلاده الأول لم تكن الصورة أقل حضوراً من صديقاتها وأصدقاء نذير، بل شاركت الصورة في أكل الحلوى أيضاً!... وهكذا، كان خالد يكبر وتكبر معه الصورة: يزعل أبوه الذي في الصورة إن هو كسر صحنا أو آنية.. ويفرح منه إن كان حباباً يأكل صحنه كله. يودّعه من النافذة قبل ذهابه إلى الروضة، ويستقبله ظهراً بالألعاب والحلوى. يجلس مع خالد وأمه إلى «صدر» الطعام، ويغفو بينهما ليلاً على الفراش. ما من بارودة أو طابة أو كتاب ملون أو سعاان أو فيل إلا - يقول خالد - بأن أباه قد اشتراه.

وبالطبع، فإن مريم هي التي كانت تفعل ذلك: يجيء خالد من الروضة، فيركض إلى أمه يسألها ملهوفاً: «ماما شو جبلي البابا اليوم؟» فتجيبه متخابلة: «ما عرفت.. اسأله». وقبل أن تتم كلامها يركض إلى أبيه.. أعني إلى صورة أبيه المركونة على الطاولة، يسأله ولا ينتظر جواباً. يزيح الصورة فيرى دباً أو كتاباً أو قطع سكر، فيقبّله على عجل، ويطير إلى رفاقه في الحارة يتباهى أمامهم بما اشتراه له أبوه!

كم من مرة - تقول مريم - كان يشاكسها، بعد أن كبر - فتهدده بأنها ستخبر أباه وسيزعل منه، فتراه انصاع وحَلّفَها ألا تقول لأبيه! بل كم مرة كان يشكوها لأبيه!! نعم.. كثيراً ما رأته، في غفلة منه، يقف أمام المرآة ويحكي باكياً متلعثماً كيف لم ترض أمه أن يلعب مع رفاقه في الحارة أو لم تشتر له بوظة، أو لم تأخذه إلى المراجيح!! ومن طريف ما روته مريم، وما يعيننا في تبين استفحال المشكلة، أنها في

مرة رأته في الحارة، زجرته وأدخلته البيت، فراح يبكي صارخاً: «والله يا ماما البابا سمحلي ألعب» فتندهش أمه وتكذّبه. لكنه يصرّ ويهرع إلى الصورة يُشهدها: «بابا.. مو أنت سمحتلي ألعب بالحارة؟» وتصادف أن تهتز الصورة بفعل حركة يد خالد على الطاولة، فيلتفت إلى أمه متشفياً: «شفتي.. هو سمحلي!»... وهكذا، انقضت سنوات ثلاث أخلى السجن بعدها سبيله، لكن الصورة ظلت تعتقله!

وكما يحدث بعد اعتقال طويل، عانق نذير مريم وبكى، وعانقته طويلاً وبكت «لكني - يقول نذير بأسى - حين التفت إلى خالد وضممته إلى صدري أحسست حجراً بيني وبينه! أحسست دهشته المخيفة من عناقي لأمه ربما، أو من بكائها ربما، أو من شيء ما زلت أجهله.. لكنني أحسست أني أشدّ نابضاً إلى صدري! انسفحتُ عليه شوقاً فكان مثل صخرة بين يديّ!»

بلى، حاول نذير بعدها كثيراً: استعان بمريم وأصدقائه وأقاربه. ودّعه من النافذة واستقبله بالألعاب والحلوى. قلّد كل ما فعلته الصورة في غيابه... دون جدوى! نصحوه بأن الزمن دواء، لكنه كان داء يستفحل، وتعدد أعراضه حتى باتت مريم، أيضاً، ترى في عيني خالد شكاً واتهاماً، أو نظرة تشي ولا تقول: «أنت كذابة يا ماما».

* * *

لا أستطيع أن أخبركم ماذا حدث بعد ذلك، فقد انقطعت أخبار نذير عني بعد انتقال عائلته من دمشق إلى حلب. غير أني سمعت من شخص يعرفه هناك أن خالداً ما زال يلعب

بالحارة ويتشاقّى مع رفاقه. وأنك - يضيف الشخص - إذا ما صادفت خالداً وسألته عن أبيه فلن يقول لك قط إنه غير موجود، ولن يتردد أبداً في أن يطير أمامك إلى باب الدار يقرعه بتسارع وشدّة، وحتى حين يصادف أن يفتح نذير نفسه الباب، فإنك سترى خالداً يدفعه جانباً، وينسلّ إلى الغرفة راكضاً، يقفز فوق كرسي ويقول باشاً فرحاً لأبيه الذي في الصورة «بابا اجو رفقاتك.. اجو رفقاتك».

آذار 1987

رائحة الخطو الثقيل

ارتطمتُ بالخبر وكادت تسقط في تكذيبه، لولا أن أعاد قوله مؤكداً:

- بلى.. كما قلت لك.. وافق الشباب على لقائك به، وكلّفوني ترتيب موعد معك.

- طيب.. متى وكيف؟؟

قالت تستعجله الكلام وقد تراجع اصفرار وجهها أمام حمرة داهمة تزيّت بشوقها.

- غداً أو بعد غد.. حسبما يتناسب.

- لا، غداً.

بترت كلامه المبطئ، فقال مهدئاً:

- تمهلي سلمى.. تمهلي. غائب عنك منذ سنتين.. استعجلت الآن!!

ابتسمت مناكفة:

- ومنذ سنتين وأنا مستعجلة.. مستعجلة خلقة!

- يا ستي استعجلي على كيفك.. إلا في مثل هذي المواعيد، فالعجلة تكلفك وتكلفه غالياً!

زفرتُ ضيقاً:

- جئت تحاضر بي؟ أخبرني الآن كيف أراه وأين؟

ابتسم بوداعة وهو يخرج قلبمً وورقة:

- اسمعي. إن كان اللقاء غداً فسيكون ليلاً. نظر إلى ساعته:

حوالي هذا الوقت.

أومأت موافقة، فرسم دائرة على الورقة وتابع يقول:

- تعرفين مشفى المجتهد (وضع شارة × داخل الدائرة) مقابله تقريباً حارة أو شارع صغير تفضي نهايته إلى الميدان (رسم خطاً مستقيماً يتقاطع مع الدائرة). في هذا الشارع الفرعي.....

همست لهفة:

- عرفته.. هناك؟

- لا.. انتظري! في هذا الشارع انعطافتان إلى اليسار (قاطع المستقيم بخطين متوازيين متباعدين) دعي المنعطف الأول.. في بداية المنعطف الثاني، على كتفه تماماً، بداية حارة ضيقة خالية من البيوت، في نهايتها شجرة كينا ضخمة (رسم مستقيمين قصيرين متقاربين، ثم علّم نهايتهما بما يشبه الشجرة، ووضع شارة × بارزة) هنا.. تحت شجرة الكينا تماماً.. ترينه.

هلَّ وجهها وفركت كفيها:

- عظيم.. اتفقنا.. وفي أي ساعة؟

شدّ إبهامه إلى سبابته:

- التاسعة ليلاً. لا تتأخري دقيقة ولا تبكري دقيقة. التاسعة تماماً.

حزمت شعرها الأسود الطويل خلف رأسها ورُفت جفنيها:

- حتما.. حتما.

نحّى الورقة والقلم جانباً، وشابك بين أصابعه:

- والآن.. انتبهي لي.....

قاطعته مستاءة ومدهوشة:

- محاضرة أخرى!!

دُهش من دهشتها:

- ومحاضرات..! يعني اعتقاله أفضل؟!

نتأت، للحظة، مخاوف كانت خبيثة في لجة فرحها بلقائه.

أردفت تطمئنه:

- أعني.. فهمت التحذيرات من لقائي معه المرة الماضية. ثم راحت تقلد صوته وحركاته: لا تتأخري.. لا تخبري أحداً.. داري اضطرابك.. تيقظي لمن حولك.. حاولي أن.....

خطف الكلام منها:

- هذا ما أريد التأكيد عليه هذه المرة: تيقني ممن حولك في الطريق. يحتمل أن يكون بينكم مراقباً بعد مداهمته آخر مرة.. ولذا، تأكدي من أن أحداً لا يتبعك أو يراقبك. علامة الأمان كما اتفقنا عليها مع «أبي عمر» محفظة يدك. فطن لعمر فأضاف: على ذكر عمر.. لا تحضريه معك، ولكن خذي صورته فقد طلبها أبوه. المهم.. إن كانت محفظتك معلقة على كتفك اليمنى وسبحته في يده اليمنى أيضاً.. كان لقاؤكما آمنا. عند أي تخمين أو توجس أو شك.. علقي محفظتك على كتفك اليسرى ولا تقتربي منه.. وهو سيحترز

بنفس الطريقة. اتفقنا؟

- اتفقنا.

أجابت وقد بهتت حمرة وجهها وعاوده اصفرار قلق خفيف.

- والآن.. أنا ذاهب. تريدين شيئاً؟

- شكراً يا أبا ماجد.

استدار بعد خطوتين:

- سلمى.. حاذري! هم لا يعرفون شكله حتى الآن. أنت دليلهم الوحيد.

- لا يهمك. سلّم على الشباب.

لكنها، ما أن قفلت راجعة، حتى انزلقت في هاوية قلق لا تدري كيف داهمها!

* * *

عندما وصلت البيت، كان النعاس قد سبقها إلى الفراش، فأسرعت - بعد أن خطفت نظرة اطمئنان على عمر - وارتمت في أحضانه.. لكنه جفا!!

سُرَّت، رغم امتعاضها، من جفوته إذ نهضت ذكريات ورؤى أيام كثيرة نأت. فاستلقت على ظهرها، وراحت مخيلتها تعدو خبلاً مع الأيام الماضية.. يوم تعرفت إليه.. ويوم تعاهدا على جذع شجرة ألا يفترقا.. أيام انتظاراته الغاضبة ومجيئها الملهوف.

أكبت على وجهها تهرب من أرق وشيك، فتلاحقت

الأيام.. يوم زواجهما المفاجئ وذهول أهلهما.. يوم اختلفا وبكت كثيراً وأصرت ألا تبقى معه لحظة، ولحظة - عند الباب - عندما تطلعا إلى بعض، وفاضا، وانغمرا، والتحما، وذابا، وارتعشا، ثم خفتا، وهمدا، وسكنا مثلما يسكن عشق في قلبٍ شقاه الحزن.

رمت الشرشف عنها، وعاودت الاستلقاء على ظهرها.. فهبّ ذلك اليوم الرهيب في عينيها كأنه الأمس! ساعة داهموا البيت بحثاً عنه، وكيف قلبوا أغراضه، وقلبوا - حينها - الفراش، وكيف سرقتها، في ظلمة رعبها لحظتذاك، ابتسامة مباغته: «أيعقل أن يكون مجيد مختبئاً بين شبك السرير والفراش!!».

ثقل جفناها، ولم يطبقا! طمرت وجهها تتوسل نوماً.. فمدّت شجرة الكينا أغصانها من شباك مخيلتها، فتعلقت بها وهبطت... رأت مجيداً يخرج من جذعها كأنه ما ولد للتو، فضمته ومرغت وجهها في صدره.. وبكت. غمرها، فغابت بين يديه. تسربت إليه تشم رائحة الصنوبر العابقة منه فاتسع بحور آمداء زرقاء مطرزة بحبيبات الشمس الحانية.. مضت به ومضى معها بصحبة شمس تأفل خلف أفق بعيد كان واضحاً ثم راح يتلاشى شيئاً فشيئاً، في أحضان الظلمة

* * *

حين صفقت الباب خلفها، انفتحت في صدرها هوة المخاوف والتوجسات من لقائه. سوّت ثوبها السماوي، وركّزت شريط محفظتها على كتفها اليمنى، وتأكدت من الوقت: التاسعة إلا ربعاً.

مشت تقطع الحارة المنتهية إلى شارع «ابن عساكر» وهي تخطف نظرات حذرة، ثم انعطفت يميناً وتابعت.. قليل من المشاة وكثير من السيارات. أحست الوجوه تنهبها: «هو السارق هكذا.. يظن كل الناس تنظر إليه». وشوشت نفسها متجاهلة المارة ومتجهة نحو ساحة باب مصلى:

«أ أراه حقاً؟! هل يقبل بالعودة معي إلى البيت؟ جدران البيت اشتاقت له. وعمر؟ يا إلهي لو سمحوا بجلبه معي!» فتحت محفظتها وتيقنت من وجود صورة عمر، ثم أغلقتها: «ربع ساعة؟! كان يجب أن أخبرهم أن ربع ساعة لا تكفي! لا، لا تكفي! في المرة الماضية كانت مثل الحلم! ثم... لقاءان في عامين!!»

- يسعد لي الله أوقات الحلوين.

نقزت على صوت شاب صار قبالتها، فانحرفت مرعوبة: «الله لا يسعد أوقاتك يا كلب». شتمت في سرها ثم أغذّت في السير تلتف حول الساحة. سألت الوقت: التاسعة إلا سبع دقائق. قطعت شارع المجتهد إلى الرصيف المقابل لرصيف المشفى: «سأسأله إلى متى يظل متوارياً.. ومتى ننتهي من هذا الكابوس.. مرتان فقط داهموا البيت وسألوا عنه ولم يعودوا بعد ذلك.. يعني إلى متى؟! لا بد أنه والشباب موهومون.. فمن سيتفرغ لمراقبته أو مراقبتي؟!» وخزت «المراقبة» صدرها قبل أن تنعطف إلى الشارع الفرعي المقابل للمشفى.. التفتت، ففوجئت بشخص يخطو خلفها! انقبض صدرها وتبخرت تساؤلاتها: «معقول؟!» فكّرت تستعيد سيرها طوال الطريق، فأحست أو تراءى لها أن

شبحه لازمها مذ خرجت من البيت. عاودت التلفت، فرأته دون أن تتبين ملامحه: «أيكون واحداً منهم؟!» نفذ الهلع إلى عينيها، فأبطأت تجلو حقيقته: «أم هو أحد المشاكسين الزعران؟!» سرَّت تنأى بظنها الذي تلبسها مثل الإخطبوط. تابعت إبطاءها، فلم يتجاوزها ولم يمض من خلفها كما أحست من وقع خطواته الثقيلة مثل مطرقة فوق قلبها! تناوب صدرها علواً وهبوطاً وهي تجاور الدكان القديم.. عاود النظر قبل أن تنعطف يساراً في الحارة الضيقة.. رأته!

مثل رعشة تنتاب المرء فيختلج كيانه كله رغماً عنه. نزعت يدها شريط محفظتها وعلقته على كتفها اليسرى، ثم خطت في حارة شجرة الكينا تسحب قدميها كما لو كانتا تغوصان في طين عميق دبق: «قتلني هذا الصمت.. ليته يشاكسني ولو بكلمة واحدة!» لاحت الشجرة، فذابت قلقاً وندّى جسمها عرق طفح مثل حمى مباغته وهي تغور تحت وقع خطوات الصمت خلفها ودنو الشجرة منها.....

في اللحظة التي ظهر فيها مجيد من خلف جذع شجرة الكينا يحمل سبحته بيده اليمنى، شُلت يدها فوق محفظتها المعلقة على كتفها اليسرى وراحت قدماها تخطوان بطيئاً، بطيئاً كما لو في كابوس حلم ثقيل... دَنَت فلمحت وجهه المشدوه وسط لحيته التي طالت يقول ويسأل مذعوراً دون صوت... هجمت عليه بعينيها، ضمته إليهما، ثم أسبلتهما وهي تتجاوزه وقد خلفت قلبها يئن مختنقاً برائحة الخطو الثقيل الممض خلفها. أسرعت قليلاً، ثم هرولت باتجاه الشارع العام.. قطعته إلى المشفى. تحادثت، خطفاً، مع

عامل غرفة الاستعلامات. دخلت المشفى. دارت دورتين وخرجت. تلفتت خلفها وحولها، لم تجد «الشخص». نطت تقطع الشارع إلى الرصيف المقابل. زعقت سيارة فرملت وكادت تصدمها. تابعت ركضها وشتائم السائق تلاحقها: «ولك يا... زبونك ما رح يطير!»

طارت باتجاه الحارة الضيقة وهي تمسك محفظتها في يدها اليمنى، دخلتها... فانبجس الظلام وحجَّ في الحارة كلّها! ارتجت على فزعها، وراحت تستطلع.. فرأت صمتاً مشبوحاً! أدارت عينيها، فسمعت فراغاً مجوفاً بالفراغ!

أفلتت عيناها باتجاه نهاية الحارة.. فاصطدمتا بشجرة الكينا الضخمة المتلفعة بالذهول لا تنتظر أحداً ولا يخرج من جوفها أحد، في حين تلاشت أغصانها الكثيفة المتشابكة في فضاء العتمة. دنت من الشجرة.. حاذتها.. ثم ضمتها إلى صدرها الواجف وأخذت تدور حولها... فخدش حفيف يديها فراغ المكان وصمته القاتلين!

توقفت وقد أحست قواها تفرّ منها. سندت ظهرها إلى جذع الشجرة وراحت، مأخوذة، تهوي رويداً.. رويداً، تحت وطء محفظتها التي ظلت معلقة على كتفها اليمنى.

تموز 1987

هذه المرة

ابنتي الصغيرة، يغضبها مسح وجهها بالصابون أو رشقه - خفيفا - ببعض الماء فتفر برمة، أو تتلوى بين يدي كلما أدنيتها من الصنبور... فأضطر لغسل وجهها عنوة، متغاضياً عن صراخها وبكائها الرافض.

غير أنها، هذه المرة، استكانت لساعدي، وسلمتني وجهها الذي بدا، تحت قطرات الماء وحزمة الشمس الساقطة عليه، مشعاً بضياء غريب لم أعهده من قبل.

وتستهويها اللعبة - دائماً - فتتابع ركضها المتعثر حول الكرسي، واستمر أنا في دعوتها للتوقف حتى أنهي تسريح شعرها، فلا هي تستجيب، مترقرقة في ضحكها... ولا أكف أنا، منزعجاً، عن تصعيد غضبي وتحذيرها بالضرب، إن هي استمرت في دورانها وحالت دون تمكيني من تسريح شعرها. لكنها، هذه المرة، كانت هادئة وديعة، أعطتني رأسها، الصغير المكور، أسرح خصلاته الذهبية على صدغيها وجبينها، كما أحببت لشعرها - دائماً - أن يكون.

وتواري رغبتها في اللهو بأن تشكو ضيق ثوبها الأبيض المشدود على صدرها وخصرها النحيل والفضفاض عند كتفيها المبرومين وساقيها البضتين، أو تتذمر من خشونته التي تضايقها - كما كانت تقول - مما يدفعها، دوماً، إلى الاختفاء تحت السرير كلما لمحته في يدي.

إلّا أنها، هذه المرة، لم تختف تحت السرير، بل هي ارتضت ارتداءه بهناء وروية، أتاحت لي فرصة عقد

الشريط الحريري الأزرق عند كتفها اليسرى، والذي طالما ظل، في الأيام الماضية، متهدلاً ومثيراً لخنقي عليها.

ويغريها جوربها الأزرق، المطرز بقطتين بيضاوين، أن تسألني عما إذا كانت القطة ستأكل أصابعها، فأجيبها بالنفي. ثم تكرر السؤال مع الفردة الثانية، فأضيق وأجيبها نزقاً: لا. فتبتسم، وتطلب مني أن أموء مثل القطة، فأفقد صبري صارخاً، وتفقد ابتسامتها باكية.

وعلى غير عادتها، كفت عن السؤال، هذه المرة، وراحت أصابعها الفستقية تنزلق في جوف الجوربين، دون أن أموء لها، أو تبكي أمامي.

حتى حذاؤها، كان يعجزني ويسلبني احتمالي! فكم تطاير من قدمها الرشيقة المتمردة، فلا أتمكن من إدخال شريطه الجلدي في حلقته المعدنية قبل أن أعنفها وأحكم الإمساك بساقها جيداً.

أما هذه المرة، فقد انسلت قدمها في الحذاء باسترخاء وليونة دون تعنيف، وتجاورت مع الأخرى في ازدواج محبب، افتقدت تأمله منذ زمن طويل.

فقط.. حين رفعتها وضممتها إلى صدري، مسدلاً رأسها على كتفي ويديها حول عنقي المتصبب عرقاً، انتبهت - فجأة - إلى أني لم أحذرها - كما كنت أفعل دوماً - من إلصاق حذائيها ببنطالي، لأنها، هذه المرة، كانت ميتة.

آب ١٩٨٦

الصناديق

إلى يوسف عبد لكي

لكزه الضوء المنسكب من صباح نافذته، فأفاق نشطاً فرحاً. تطلع إلى النافذة فبدا له هذا الصباح أجمل من كل الصباحات الماضية التي كانت تهجم عليه وهو في عزّ أحلامه. نظر في ساعة يده: الثامنة. بخفة وحيوية نهض يدلك ساقيه، تمطى صوته مع جسده: «أربع ساعات.. وأكون محلقاً في العلالي!»

أشعل سيجارة «حمراء قصيرة» وركن يغلي فنجان قهوة، فانتبه إلى أنه، على غير عادته، يدخن على الريق.. لكنه أبقى السيجارة بين شفتيه بعد أن استشعر لذة خاصة من الدخان الذي يلج سريعاً رئتيه، ثم يخرج متباطئاً يحمل فرحة صدره ويوزعها على أرجاء الغرفة.

رشف الرشفة الأخيرة، ثم ضرب الطاولة بكعب الفنجان كأنه يهم برفع كأس عرق: «لأبدأ باكراً قبل أن يفوتني الوقت». أشعل سيجارة أخرى، وجال بعينيه يُرتّبُ أغراض الغرفة التي سيعطيها لصديقه وليد قبل سفره.

كانت غرفة «رغدان الشيخ» أشبه بمستودع صناديق خشبية: خصّ صناديق الوسكى المتينة للكراسي.. وركب صناديق التفاح متراصة القطع على هيئة مكتبة بعد طليها.. وجمَّع ستة صناديق شكّل منها طاولة مستطيلة.. أما «بار الأصدقاء» - كما سماه وليد - فكان عبارة عن أربعة صناديق متناظرة، معلقة في الزاوية، أُفردت لزجاجات «الريان» و«الميماس» وللكؤوس المتنافرة الألوان والأشكال

التي كان اشتراها من معمل الزجاج اليدوي. وبين «أثاث» الغرفة تناثرت صناديق ضمَّت رسائل وصوراً وأوراقاً وقلائد وأشياء كثيرة متفرقة ظلت لصيقة قلبه، إلى أن قرر السفر.

حين نهض ينوي إفراغ الصناديق.. هبط قلبه! رفعه، وجرّ ساقيه اللتين داهمها ثقل مفاجئ، همس يُنزل الوجبة الأولى من الكتب: «لا مجال.. انتهى الموضوع». سحب الدفعة الثانية فخلّفت فراغاً معتماً مغبراً تلامح فيه وليد الذي ظل يعارضه طوال فترة الإعداد للسفر، تمتم ببلع ريقه: «طيب.. ولماذا أبقى يا وليد؟!» نكأ تساؤله نقاشهما الطويل الماضي، فنبر وهو يخلع مسامير الصناديق المثبتة في الحائط: «فهمت.. ولكن أعطني سبباً واحداً معقولاً لأترك السفر!» تتابعت في مخيلته سلسلة الحجج والأسباب التي عارضه بها وليد. أنزل الصندوق العلوي محتداً: «لا تصرعني باسطوانتك التي حفظتها!» شوّح بيده يتابع تفريق الصناديق: «نعم يا سيدي.. أنا أفهم الوطن خبز وجبن ومواصلات ومشفى وبيت!» نزع مسامير الصندوق ودفعه إلى وسط الغرفة.

أشعل سيجارة واستند إلى الجدار ينتظر تبدد استيائه المباغت. ثم مال على صناديق الطاولة، قلبها... ففغرت أفواهها وبدت أفواه كائنات غريبة أصابتها الدهشة واقتحمها الرعب: «وماذا أجدت الاجتماعات والقراءات والحوارات وجلسات الشباب وسهر الليالي؟!! تفضل.. لا أكلنا عنب ولا قتلنا الناطور!» زاح الصناديق فأزّت وارتطمت بالأخرى

المتكومة وسط الغرفة: «لا وفوق هذا، صار الأكل بالوزن والكلام بالإذن!»

سحب سيجارة يشعلها من عقب أخرى، فلاحظ ارتجاف يديه. فكّر يهدئ نفسه: «طبيعي.. يعني ترك البلد سهل؟!» ثم سارع يسدّ منافذ التعب الذي تسرب إليه: «يا رجل.. سهل أم صعب، فالحياة هنا لم تعد تطاق». عادته طمأنينته، فاتجه نحو «البار» يفرغه ويفككه. أنزل الزجاجات والكؤوس همست رنيناً فارغاً، ثم أخذ يخلع المسامير التي راحت تئزُّ بين فكي الكماشة وهي تُسحب من جسم الخشب.

دفع الصناديق، واتكأ على خاصرتيه ينظر فيما تبقى. بدت الغرفة منبوشة مثله، مسح كآبة وجهه، أشعل سيجارة، وهمّ مندفعاً: نزع اللوحات المعلقة على الجدران.. طوى الفراش والبطانيات.. كوّم أوعية الطبخ.. نحى المسجلة والأشرطة ورقعة الشطرنج.

صارت الغرفة خليطاً من فوضى. توقف يتأمل فيما يأخذه معه، فقرر على الفور: «لا شيء». أفزعه القرار، لكنه مضى يقاومه بجمع الصناديق وحشوها: «لن أحتاج هناك شيئاً من هنا». ضبّ المسجلة ورقعة الشطرنج والأشرطة في صندوق: «لا مارسيل خليفة ولا الشيخ إمام». حزم الصندوق بالحبل ونحاه جانباً: «اسمعها أنت وتذكرني... أنا مللت». قرّب صندوقاً فارغاً وركع يجمع الرسائل والمجلات والأوراق والصور ويدسها داخله. لمح صوره مع منى. توقف يتأملها، فماجت أيامهما الماضية. شعر بوهن مباغت يقتنص اندفاعه. ابتسم بحزن مكسور: «هل صدّقت الآن يا

منى؟؟ كنت تقولين مناكفة: ولكني الياطر الذي يشدك فأين ستبحر! أنت ياطري فعلاً.. ولكن أنا الذي غرقت مثل سفينة تصدعت». أحس العرق يندي وجهه. مسحه بظاهر كفه ثم نظر إلى الساعة فوخزته: التاسعة والنصف!

نهض يلحق الوقت. جمع الكتب اعتباطاً وعبأها بالصناديق ثم شدّها. ألصق اللوحات بعضها إلى بعض وراح يلفها بالحبل: «ولمَ الرسم؟ أصغر دار سينما تغصُّ بما لا تحلم به أكبر صالة عرض تضم أعمال فاتح المدرس أو لؤي كيالي!» وَسَّدَ اللوحات فوق الصناديق المحشوة. دحرج الفراش واتبعه بالبطانيات والوسادة، ثم حمل صندوقاً يملؤه بما بقي وتبعثر...

حين انتهى، شعر أن الإرهاق قد هدّه. انسحب نحو باب الغرفة المغلق. أسند ظهره ورأسه إليه. تأمل الصناديق فبدت تلة من أفواه محشوة ومكمومة بالحبال! دبَّت فيه رعشة مباغته فهمس: «لم أعد قادراً على البقاء». هيّج همسه المخنوق حزنه، فباح كأنه يودع صديقه: «صدقني يا وليد لم أعد قادراً! سبع سنوات في المعتقل... وسنوات في البحث عن عمل... وأخرى في تأمين غرفة أسكنها... وأخرى وأخرى في الركض والاجتماعات والسهر... يعني ما الذي عشته هنا؟!»

هزّ رأسه وابتسم مرارة يفك أزرار منامته: «أريد أن أفهم فقط أي سفرجل هذا الذي سأندم عليه وأنا أغصّ بكل لقمة منه!» راقه التشبيه فتضاحك وهو يتناول قميصه وبنطاله، ويُخرج جواز سفره وتأشيرة الخروج، يطمئن على

وجودهما، ثم استدار نحو المرآة التي ظلت معلقة على الحائط. في اللحظة التي صار فيها أمام المرآة وكاد يُدخل يده في كم قميصه... سرقته دهشة غامضة!!

فرَّ من شروده وتلفت حائراً: «غريب...! لِمَ لا أظهر في المرآة؟!» عاود النظر في المرآة فعاوده المشهد الراعب: سطح أملس يعكس بضعة من الصناديق وجزءاً من الحائط المقابل دون أن تظهر بينها صورته! «مستحيل... أين اختفيت؟!» صرخ مرتداً إلى الخلف، ثم اقترب بحذر من المرآة كأنه يداني وحشاً مفترساً. مدّ يداً مغلولة بالتوجس يمسح الغبار الذي تراكم على سطحها، فلا بانت يده على وجه المرآة ولا انزاح الغبار! مذعوراً فرك عينيه، ثم اختلس نظرة واهنة: لا أحد! اختلج يُكَذّبُ عينيه بتلمس صدره.. فهوت يداه في فراغ أبكم.. صرخ مهووساً: «يا هيه.. كنت هنا قبل قليل! أين اختفيت؟!» جُنّ الذعر فيه وطفق يبحث عن ساقيه.. فلم يتبينهما! من وهاد الخوف اندفع نحو زاوية الغرفة وهمس بصوت أبح: «رغدان؟!» فما سمع صوته! كذّب أذنيه بصراخ صوته: «رغداااان!؟» غير أن الجدران امتصت صراخه وبقيت الصناديق قابعة وسط الغرفة فاغرة، محشوة، ومكتومة!

جابت عيناه الوجلتان خواء الغرفة، فلاذت الصناديق فيهما. انتفض ملتاثاً. هجم على الصناديق يركلها، فأنّت وتدحرجت. تقوّس يقطّع وثاقها ويقلبها وهي تتقيأ أجوافها دفعة واحدة مثل سكير لفحه الزمهرير. رفع صندوقاً وألقى به.. ثم رفع آخر وآخر فتطايرت الرسائل والأوراق

والصـور والكتـب والقلائـد والأشـرطة والرقعـة وحجـارة الشـطرنج. انـدفع يحـلّ ربـاط اللوحـات فراحـت تتهـاوي متسـاقطة. انبطـح بيـن الركـام ينـادي بصـوت مهـدود: «رغدان.. رغدان!؟»

بغتة.. لامست يداه شيئاً طرياً، فسكن! ثم، واجفاً، عاود التسلل باللمس.. فأحسّ تحت أنامله جسماً لحمياً أشبه بالجسد الآدمي! جسّه أكثر، فتعرفه.. غير أنه كان مخدّداً كما لو أن وثاقاً فك عنه للتو!

أيار 1987

لیّا

خُمنتُ أنها أرْتَجَت الباب - كعادتها كل صباح - على همومها وأحزانها اليومية حين خرجتُ من البيت متجهة إلى المدرسة... لكنها، ما أن خطت بضع خطوات حتى أحست الهموم والمشاغل تتأبط زندها حرة من الكتب المدرسية ودفتر التحضير!

نقلت الكتب إلى يدها الحرة لتغلّها، ثم ضمتها إلى صدرها الناهد.. فانزلقت الهموم والمتاعب عن زندها وتعثرت على الأرض، ثم راحت تتقافز خلفها مثل طفل عنيد مشاكس يثق للذهاب مع أمه إلى السوق.

«إيه... عمر ويمضي يا شيخة» خففت عن نفسها وهي تدرج على الطريق الترابية المعتادة: «عمر... ويمضي!»

اعتادت «ليّا الحوش» في الطريق التي تقطعها راجلة كل صباح من بيتها إلى المدرسة، أن تشغل نفسها بالدروس التي ستعطيها لتلاميذها، تلاميذ الصف الخامس، أو تتفحص بعض الثغرات التي وقعت بها في اليوم السابق، أو وجوه بعض التلاميذ الكسالى في صفها. وأحياناً... كانت تقضي الطريق، الطويلة نسبياً، بحثاً عن طرائق مبتكرة تدخل بها هذه المادة الملعونة، الرياضيات، إلى أذهان طلابها أو بعضهم ممن كانوا يتعودون من الشيطان كلما آنت حصة الرياضيات.

وليّاً الحوش أحبت التعليم. أحبته من كل قلبها. معَّن حياتها وَلَوّنها. دخل يوميات العيش التافه الذي تجرجره

راكضة خلف السكر والرز والسمن والزيت النباتي وثياب العيد، فصار مثل جُزُرٍ ترتاح فيها في خضم متلاطم الركض... صحيح أن غصة صغيرة ظلت تخنقها لأنها معلمة وكيلة... لكن «ستي... يعني المعلمة الوكيلة ضلع ناقص؟!» كسرت غصتها لتهضمها، وتابعت السير مطرقة: «حتى لو كنت ضلعاً ناقصاً... دفاتر التفتيش تشهد أني أحسن من مائة معلمة أصيلة! نعم أحسن! لولا أنهن يقبضن أكثر مني وأول كل شهر». أضحكتها مشاكل (أول الشهر) ومشاجراتها مع زوجها الموظف بشهادة بكالوريا، ثم فطنت أنها تسير وحدها فبلعت ضحكتها وقطعت إلى الجانب الآخر من الطريق: «... وفوق الدكة شرطوطة... القبض كل أربعة خمسة أشهر... ولا ترفيع ولا من يحزنون!»

حزَّت تداعياتها متعة الطريق، فتعكر وجهها وبدا مكروباً خابياً متغضناً بأحمال لا طاقة له بها.

- صباح الخير يا آنسة...

نهض أبو علي اللحام محيياً بصوته الجهوري، فتنبّهت وردت بعد لحظة غياب:

- صباح الخير يا حجي... صباح الخيرات.

«قال آنسة... قال!» سخرت ابتسامة شفتيها: «آنسة طول وعرض بـ ٩١٨ ليرة! عليم الله أجبر عنده لا يقبل المبلغ... لا والله لو علم كم أقبض وكيف أعيش لما رضي أن يرفع عجيزته ليحييني!»

بانت المدرسة، فراحت تهدد نفسها: «يا ليّا... العمر صار

مثل البولة في الحمام! تسع سنوات وأنت معلمة وكيلة... ما الذي فتَّق جروحك الآن؟ يعني باختصار لا تفكري... فلا راتبك ولا راتب زوجك ولا راتبان فوقهما تكفي عيشكم... وحتى لو كنت معلمة أصيلة... يا ستي حتى لو كنت...»

- صباح الخير يا آنسة.

- آنسة صباح الخير.

- صباح الخير آنسة.

تطايرت صباحات التلاميذ حول ليّا إذ كانت تلج بوابة المدرسة، فأخذت نفساً طويلاً كمن تصحو من غيبوبة، ثم فردت ابتسامة عريضة تهمّ نحو غرفة المعلمات:

- صباح الخير حبيبي... صباح الخيرات.

* * *

رمت مشاغل الطريق عند عتبة الباب، ودخلت الصف... فقرقعت تصبيحات أربعين تلميذاً أعادت لها حيويتها، فانطلقت مثل غزالة:

- الله يسعد صباحكم يا أولادي... هيا... كالعادة... دفاتر الوظائف الليلية أولاً... اسكت يا حسن... ثم مراجعة الدرس الماضي... لا... لا اجلس الآن يا مروان سأجمع الدفاتر وأنتم في مقاعدكم... أعطه مسطرته يا علي وانتبه لي...

مثل كرة نطاطة كانت ليّا - كعادتها - تتحرك في الصف، بين المقاعد، خلف التلاميذ، قرب السبورة... تهدئ مشاغباً، وتنبه لاهياً، وتضاحك مجتهداً عجولاً... فتستلّ منهم خمول

الفراش الذي جلبوه معهم من بيوتهم، وتبعث فيهم نشاطاً ملحوظاً قلّ مثيله في دروس أخرى مع معلمات أخريات.

صاحت من خلف الطاولة قرب السبورة:

- حسام ولؤي وعبد الغني...

نهضوا من مَقاعدهم وَجِلين.

- تعالوا.

تلكأ كل واحد منهم رجاء أن يسبقه الآخر. وتلكأت هي في حفزهم إذ داهم مخيلتها وجه زوجها صباح اليوم.

- اقتربوا... اقتربوا. لم أخطأت في حلّ التمرين يا حسام؟

- آنسة... آنسة... ما عرفت كيف أطرح الـ...

- وأنت يالؤي؟

- وأنا أيضاً آنسة.

- وعبد الغني...؟

- مثلنا قالا آنسة...

- طيب... ارجعوا.

وإذ أسبلت جفنيها ممتعضة، فيما كانوا يهمّون عائدين منكسرين إلى مقاعدهم، ضجّ في رأسها استياء زوجها الصارخ، فنهضت تتكئ على يديها، ونادت بعصبية غير معهودة منها:

- من منكم أيضاً لم يعرف حل التمرين قبل أن أدقّق الدفاتر؟

ارتفعت بضعة أصابع مثل شاهدات أمام عينيها، فهرعت تومئ أن اخفضوا أصابعكم. خفضوها، فنهض صوت زوجها: «ما عدت أحتمل الانتظار يا ليّا... أربعة أشهر ولم تقبضي قرشاً واحداً... من أين نعيش يا خانم؟!» أخمدت صوته بالقرع المُنبِّه على الطاولة... ثم أخذت قطعة طبشور، وتوسطت السبورة متجهة نحو التلاميذ:

- التمرين بسيط... شرحته لكم في الدرس الماضي عدة مرات. افتحوا عقولكم. حسن يا غبي العمى يضربك... انتبه!

واستدارت تكتب على السبورة فواجهتها المساحة الخضراء الممتدة بصمت صموت: «شرف حضرتك اسأل المحاسب المعتمد... مديرية تربية ريف دمشق... تسألني أنا!» ثم راحت يدها تكتب بآلية وصوتها يعلو مرهقاً:

- لدينا العدد 2/1 87 نريد أن نطرح منه العدد 4/3 6، فماذا نفعل؟ انتبهوا!

استدارت نصف استدارة نحو التلاميذ وأصبعها على العدد ٨٧:

- من هذا العدد الصحيح يمكن بسهولة طرح العدد الصحيح المقابل ٦:... أما طرح الكسر الثاني 4/3 من الأول 2/1 فكيف يمكننا أن نفعل ذلك؟ مهران؟ وقف ولم يجب. اجلس يا مهران... سعد؟

- آنسة... نوحد المقا... لا، أعني نأخذ عدداً بسطه ومقا... ثم صمت مفكراً. فنادت: عيسى!

- آنسة المقامات أولاً... نوحّد مقامات الكسرين أولاً ثم...

- فهمت... سيكون لدينا 4/2 87 - 4/3 6... ولكنني أسألكم...

توقفت فجأة حين تنبهت أنها لا تبارح السبورة: «ولم لا أستخدم معهم طريقة عملية؟» نزلت عن العتبة الأسمنتية، وطلبت من التلاميذ بصوت رفيق:

«طيب... سأفهمكم... سأفهمكم. ليُخرج كل واحد منكم ما معه من نقود... هيا.»

وما كادت تنهي قولها حتى تدافعت أيادي التلاميذ مثل قبيلة نحل حول يدها التي راحت تجمع خليطاً من ورقيات ومعدنيات كثيرة. جمعت المبلغ، الذي ربا عن مائة ليرة، على الطاولة... ثم التفتت إلى التلاميذ:

- انتبهوا لي. لنفترض أن هذا المبلغ يساوي 87 ليرة (فتشت عن ربعين ثم رفعتها) و 2/1 الليرة، ونريد أن نأخذ منه 6 ليرات و 4/3 الليرة... ماذا نفعل؟ يمكننا ببساطة أن نأخذ ليرة صحيحة من المبلغ مقسمة...

- نعم آنسة... نعم آنسة... إلى أربعة أرباع.

- أحسنت يا صفوح. فيصير لدينا العدد 86 والكسر 4/3 وبذا يسهل علينا، كما ترون، أن نطرح منه الكسر 4/3 واصبح؟ سهلة أليس كذلك؟ طيب... حاولوا الآن حل التمارين التالية...

أملت عليهم تمارين جديدة وكأنها تدفع كرة ثقيلة عن صدرها، ثم جلست ساهية تجمع وتفرّق الليرات وسط لغط التلاميذ الهامس.

بغتة، أبعدت ليّا أصابعها عن المبلغ، وكأن عقرباً نتأ من تحت الليرات المتراكبة المبعثرة على الطاولة! سرقت لمحة إلى التلاميذ... فبدوا منكبين على دفاترهم. نهضت وقد لدغها الخوف، فاجتذب عينيها بريق الليرات المتلألئ.

«طبعاً لا!» أجفلت من فكرة راحت تزحف في رأسها مثل حية رقطاء... فركنت إلى زاوية السبورة تلهو بخطوط لا تراها!!

- آنسة... أنا خلصت.

أنقذها صوت صفوح المنبعث من المقاعد الخلفية.

- أحسنت يا صفوح... تعال لأرى.

وجدتها فسحة، فغرقت تتأمل دفتر صفوح دون انتباه: «ولم لا؟ هو مبلغ محترم! تسع راتبي الشهري تقريباً... لكن...؟ ستي ومن سيعلم؟ التلاميذ...! سينسوا! حبهم لي ينسيهم المبلغ...»

- آنسة... آنسة

- تعال..

وقف غسان قرب صفوح ، وغطست ليا من جديد : و هذا هو الجنون بعينه يا ليا ! تصوري المدير والآنسات وأنت تقفين بينهم مثل تلميذ لص شقي !! يا الهي ! .

نظرت إلى التلميذين الواقفين قربها تسترق فرصة ، فبدا في عيونهما سؤالا رماديا قاتما . نزلت عن العتبة ، واندفعت بين المقاعد تهرب من كابوس حيتها الرقطاء.

من انتهى أيضا .. ؟

- أنا آنسة

- أنا آنسة

امتدت الدفاتر إليها ، فأحست كأنها وثائق اتهام يشهرها قضاة في وجه الجاني . للتو ، ابتكرت محطة تأمل جديدة

تأكدوا أكثر .. لا أريد خطأ.

ثم تهادت بين المقاعد متوجسة من مشهد العقارب المتزاحمة فوق الطاولة : « مجنونة يا ليّا!! مرة واحدة .. ولن أعيدها ! ومرة واحدة تسقطين ! كفى ! لا أسقط ولا أعلو .. هذا في كتب الديانة فقط ! وعيون التلاميذ يا ليّا ؟ وسمعتك ؟! يا أختي .. ليرة أو ليرتان بالنسبة للتلميذ ماذا تفعل ؟! يعني صحيح الواحدة منا ....»

مثل طلقات نارية متتالية ، اخترق رئين الجرس الأذن بنهاية الحصة أذني ليّا ، فانتفضت ملتاعة في غمرة زعيق التلاميذ وبرودة ثوبها المندى بالعرق الطافح السيال...

آب / 1987

یا فدوی

معاً، تشويحة يده في فضاء الباص وصوت كالفحيح نتاً منه... جعلاني أظن أن الجالس إلى جانبي مصاب بمس!

وجهه، حين خطفته بنظرة عجلى، كان صامتاً عن لغم حاذرت انفجاره بمطابقة رقم مقعدي مع رقم بطاقة السفر... ثم داريت أكثر بالتطلع إلى الطريق الذي مضى، للتو، بالاتجاه المعاكس للباص.

- شيء يجنن يا رجل...!

داهمني الصوت المتهدج قبل أن أدرك أنه يعنيني. كان صوت الرجل الجالس قربي حذاء النافذة. تكلفت ابتسامة وأنا أنظر إليه، فلم يتكلف شيئاً سوى أنه تابع يخاطبني بعينين سكرانتين:

- أقسم لك بالله طق عقلي! عشر سنوات مثل السمن والعسل! ما قصرت يوماً ولا قلت لا... العمى!

نبر يضرب ساقه بيده، يدفعها ثم يسحبها على امتداد الساق وظهره ينثني ويستقيم. قلت لأمسك الحديث:

- خيراً إن شاء الله...؟ يظهر...

غير أنه أدار وجهه نحو النافذة، فأتاني صوته كثيفاً مرتداً من ارتطامه بالزجاج:

- نعم... صدقنا وآمناً أن الدنيا غلاء!... يا ستي وغلاء

مثل الكذب كما تقولين!... طيب... يعني هذا يا فدوى...

التفت نحوي، فأجفلني اعتكار وجهه:

- يعني إذا كانت الدنيا غلاء يا رجل... العمى! مصيبة! بالله عليك أليست مصيبة؟

هززت رأسي أهمّ انتهاز فرصة... لكنه تدفق:

- أكان ينقصنا؟! ألا تكفي عيشة الزفت التي نعيش؟ أول بطن... والثاني... في الثالث خلفت توأم. أربعة أولاد يلزمهم خرج مال! وأمهم وأنا؟ صرنا ستة ثم... ثم أجرة البيت؟ قال بيت قال! قل خم دجاج يا رجل ولا تخف! لأ سيدي، إحسبها 1200 ليرة من الشركة و 800 ليرة من محل أبي ماجد بعد الدوام. ماذا أفعل؟ أقطع نفسي؟!

تصيدت فرصة سؤاله لأسأله:

- سيدي، الحال من بعضه... لكن...

لم يفسح لي مجالاً ولا سمعني ربما:

- يدلف البيت؟ نرقّعه. الأولاد عرايا؟ ليسوا أحسن من الذي خلفهم! يلزمنا ألف غرض وغرض؟ صحيح... ولكن نظل نلهو بالمقصقص حتى يجيئنا الطيّار. نعم... نظل نلهو بالمقصقص، وإلّا ماذا نفعل؟ قال ماذا؟ حسان! يا أخي حسان معي بالشركة وشغيل مثلي... أي نعم... ولكن حسان يشتغل بالتهريب إضافة على شغله بعد الدوام. يا عمي الله الوكيل أنا لا أعرف تهريب صوص ابن يومين! لأ سيدي... ولا بيع الساعات وبناطيل الجينز! يا أخي سرقوني... جربت

وسرقوني. لا أنكر. حقها. ولم الكذب! صرنا على الحديد فعلاً... غير أن ما تفكر به من أنها...

اختنق بصوته فغيّب وجهه في الزجاج ثانية كأنه يحاول اختراقه. حرت فيما يقول وفيما أقول. وجدتني مأخوذاً إلى مجهول كلامه. حاولت أن أخمن، فتهت أكثر. عدت أداري مصيبتي الغائمة بلهو منتظر. أرجعت ظهري ووكأت رأسي إلى مسند المقعد، ثم أخرجت سيجارة وقدمتها له:

- بسيطة يا شيخ... دخن عليها تنجلي...

باح مهدوداً:

- والله لا يجلوها غير ربك يا رجل. تركت الشراب حتى أوفّر، وبعدها تركت الدخان أيضاً. ماذا عليّ أن أترك؟ حياتي!! لا. أنا لا أتهمها. المخلوقة ست بيت ومدبّرة. يشهد الله أنها أحسن مني، أصلاً لولاها لجرجرتنا الكلاب، لكن الأولاد...

اقتحمت كلامه حتى لا أبقى مثل الأطرش في الزفّة:

- فعلا يظهر الأولاد هم...

- وأنت قلتها. يرحم أمواتك. المشكلة أنه لا في صدرها حليب ولا في السوق... ويا من ترى الأولاد يتناوبون المرض. طيب... مشافي الحكومة ما فيها دواء... أجلب من بيت أبي؟! هذي حالنا... طيب هاتي ما عندك!... أعطني حلاً!!

في تلك اللحظة، انحسر الهدوء عن وجهه وفاضت ملامحه رعباً:

- ماذا!! قالت هذا حل!... يا جماعة الخير قالت هذا حل! يعني إما أن تكون قد جُنت... أو أنني جُننت!!

وراح يخبط يديه على ساقيه، فيما تعاظمت دهشتي وتفشى سؤالي المعلق على شفتي. وعلى غير توقع... أطلق ضحكة عجفاء موتورة كادت تيقن ظني أن الرجل ممسوس.

- صدقني... ليس ألعن من أن تكتم أوجاعك يا رجل. خنقني الصمت وقتلني التستر. منذ شهرين وأنا أعيش دنيا غير دنيا كاتماً ما أخبرتني به. أقلّبه على ألف وجه فيقلّبني مثل فروج على نار جهنم!

كنت جالساً أجمع وأطرح مصروف البيت لا علم ولا خبر... يا غافلاً لك الله... حتى جاءتني تقول يا رضوان... إلى متى؟! قلت: خيراً إن شاء الله يا فدوى...؟ علمي علمك! قالت يا رضوان لا طويلة ولا قصيرة... عمرنا شحاذة... والأولاد يكبرون بين الموت والحياة... والغلاء ذبحنا... يعني باختصار أريد أن اشتغل.

مال نحوي فبدا في عينيه التماع غريب موحش. همس كأنه لا يراني:

- وما أدراني؟! في البداية قلت لها: والأولاد يا فدوى؟ قالت يدبرها الدبّار. قلت أسايرها: ستي يدبرها... ولكن ما ستشتغلين يا خانم بشهادة الكفاءة التي معك؟ قالت: لن أشتغل بشهادتي. عجيب! قلت وماذا إذن... بالفهلوية؟ قالت مكسورة كما لم أرها يوماً: لا يا رضوان... سأشتغل. نعم سأشتغل.

شبح الاصفرار وجهه، فاستسلمت مذهولاً، لم أنبس ولم

أحاول. تابع كأنه في غيبوبة:

- في البداية لم أرد أن أفهم يا رجل. لو فهمت ما تعنيه لجُننت... لكنها لم تترك مجالاً... قالت: يا رضوان... أعرف أن الموضوع مفاجئ لك وقاس عليك... لكن جوع الأولاد وعيشتنا قاسية أيضاً... أردت أن أخبرك حتى لا تقول إنني أخونك. قصمتْ ظهري يا رجل. صدقني لو فجعت بأولادي الأربعة لكان أسهل علي. لكني قلت صبّر نفسك يا رضوان... خذ واعط معها في الكلام. وفعلاً، رحت أقول وراحت تقول. طوال الليل ونحن لم ننقطع عن الكلام والبكاء... تقول أصابتنا مصيبة!! حلت علينا كارثة!! والله لا أدري!! غير أنه طلع الصبح وهي تحضني وتبكي وأحضنها وأبكي. يعني، بلا طول سيرة، ما في فائدة! بعدها، للامانة، فكرت كثيراً. قلت، لنفسي أخبر أهلها؟ لكن أهلها لا يعترفون بها أصلاً لأنها أحبتني وهربت معي! أقول لأصحابي؟ يعني وماذا سيفعلون سوى تناقل حكايتي! حتى طلاقها بلا طعم! أين سأرمي أربعة أولاد؟ ومن أين لي بمهر الثانية؟ وما أدراك كيف تكون؟ لا أخفيك... فكرت بقتلها! للحظة فكرت، ثم ضحكت من جنوني. ما ذنب الأولاد لأرمي نفسي في السجن وأرميهم في الشارع؟ وما ذنبها لتموت مظلومة... أي نعم مظلومة... لأنها، يشهد الله، كانت معي طوال عشرتنا مثل ليرة الذهب... ولولا أنها كذلك لما أخبرتني أصلاً!

كان الزبد يرغي على فمه، فمسحه بظاهر كفه... فيما كنت أغور، ساكناً، فيما يقول:

- كتمت الأمر. قلت غيمة صيف وتمر! وعدت أحاول معها. تخونيني يا فدوى! قالت لا يا رضوان... لا تغلط! لو أحببت غيرك وعاشرته دون علمك لكنت خنتك فعلاً. لكنه ليس لي في الدنيا غيرك يا رضوان وأنت تعرف ذلك! أنا أريد أن اشتغل لنأكل يا رضوان. وعدنا إلى نفس الحديث. هي لم تقنع معي وأنا لم يحملني عقلي. تصور! قالت وماذا نخسر يا رضوان؟ أغمض عيني واتخيلك معي. هي ساعة... ونعيش بعدها مثل الخلق والناس. يا أخي... هسترتني فكرتها. هدت حيلي. الله يلعن الفقر وعيشته...

كسر البكاء صوته فتبعثر على زجاج النافذة. حاولت أن أقول شيئاً... ظل لساني ملتصقاً بفمي. تنحنحت... فاختنقت أكثر.

كانت بيوت «القسطل» الطينية تنزلق على الزجاج، لحظة عاد صوته متهدجاً:

- أتعرف ماذا جرى بعد ذلك؟

انطلق لساني لهوفاً:

- وماذا جرى؟!

فرقع صوت معاون السائق في فضاء الباص:

- يا شباب... النازل هنا يعجل... الوقوف ممنوع!

نهض رضوان وبعض الركاب. اعترضته عيناي تسألانه، فتمتم بما لم أفهمه وسط اللغط، وأسرع نازلاً...

اندفعت نحو النافذة، فرأيته يمضي جوار راكب آخر، فيما

يده تطوح يمنة ويسرة... تدق على صدره... ثم تشير إلى رأسه، في حين اعتقلت الدهشة الراكب الآخر، كما بدا من خلف النافذة المغلقة بإحكام.

تشرين الأول 1987

إبراهيم صموئيل

إبراهيم صموئيل (مواليد **1951** ـ دمشق) قاص وكاتب سوري بارز، يُعد من أهم الأصوات في فن القصة القصيرة المعاصرة في العالم العربي. اشتهر بكتابة القصة القصيرة وبأسلوبه المكثف وتركيزه على العوالم الداخلية للإنسان، خاصة في سياق العزلة والضغوط الاجتماعية والسياسية. مع تناول مكثف لثيمة السجون. يصف علاقته بالقصة القصيرة بأنها **"علاقة عشق"**، حيث يرى فيها وسيلة للتواصل الذهني والفكري المباشر مع القارئ.

حاصل على إجازة في **الدراسات الفلسفية والاجتماعية** من جامعة دمشق.

تعرض للاعتقال مرتين خلال فترة حكم **حافظ الأسد،** وهي التجربة التي انعكست بعمق على موضوعاته القصصية.

أصدر **إبراهيم صموئيل** عدة مجموعات قصصية أثبتت تميزه في هذا الجنس الأدبي، منها:

1. **رائحة الخطو الثقيل** (1988- دار الجندي - دمشق - سوريا)، مجموعته الأولى التي لفتت الأنظار إلى موهبته.
2. **النحنحات** (1990 - دار الجندري) دمشق. سوريا
3. **الوعر الأزرق** (1994).
4. **البيت ذو المدخل الواطئ** (2002).

المؤلفات الأخرى والمساهمات الثقافية

المقالات: له كتاب بعنوان **"فضاءات من ورق"** (1999) يضم مجموعة من مقالاته الثقافية والأدبية.

العمل الصحفي: واظب على كتابة زوايا ومقالات في مجلات وصحف عربية مرموقة مثل **مجلة العربي** الكويتية وصحيفة **القدس العربي**.

المسرح: تم اختيار نصوصه كمشاريع مسرحية لطلاب المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق نظراً لعمقها الدرامي.